المقاربة السيميائية في قراءة النص الأدبي

الأستاذ : **يوسف الأطرش**
جامعة سطيف

إن الحديث عن المنهج السيميائي في مجال الدراسات الأدبية يشترط الإلمام بجميع المقاربات النقدية السابقة عليه، وجميع المقولات الإجرائية المتداولة في مختلف هذه المناهج، وتحديد فضاءاتها المعرفية، بوصفها رؤى فكرية أو إيديولوجية تمثلها النقاد ودارسو الأدب بعامة. ذلك لأن التصور السيميائي للأشكال والظواهر، وللأشياء، وللموضوعات تصور ناتج عن تطور جملة هذه المفاهيم. فمعظم الأدوات الإجرائية، والمفاهيم المعرفية التي يشتغل في ضوئها النشاط السيميائي متضمنة في التراث النقدي، قديمة وحديثة.

وبالتالي فإن التصور السيميائي -في اعتقادنا على الأقل- تصور شامل تشتغل فيه جملة المفاهيم التي أفرزتها السيرورة النقدية، والتأملات الفكرية/الفلسفية، انطلاقا من المسلمة بأن أسس مناهج الدراسة والبحث هي من اهتمامات الفلاسفة، مما يعطي للمنهج -أي منهج- إطاره الموضوعي، و يتمثل في ذهن الناقد كرؤية معرفية تفصل بين الذات والموضوع. ذلك لأن التعامل مع الموضوعات المختلفة في حياتنا المعاصرة يتطلب تبني طريقة في التفكير والتدبير؛ تتماشى وطبيعة هذه الموضوعات التي يقررها الواقع، بوصفه أشكالا مبنية، وليست واقعا مسلما به، مما يستدعي التعامل مع هذه الموضوعات من الداخل، لأن أهميتها تنبثق من هذا الداخل.

إن هنا التصور المنهجي يبعد الذات؛ ذات الدارس أو الباحث، باعتبار أن الذات تحيل على الخارج، إلى واقع جاهز معطى[1]. وبالتالي يجب أن يكون التصور المنهجي **ابستيمولوجيا**، حيث يستطيع أن يستقل عن الظروف

والملابسات الخارجية المتعلقة بموضوع الدراسة. إن هذا التموقع المعرفي للمنــهج بإمكانه أن يحقق نتائج موضوعية تؤدي إلى تغيير التصورات والمفاهيم التي كانت تبدو من المسلمات.

و يمكن أن نعطي أمثلة[2] لذلك؛ فمفهوم النسبية حل نحل المطلق/الإطلاق، ومفهوم الديناميكية حل محل الثبات والجمود. وعملية الاستنباط تجاوزت عمليـــة الإسقاط التي مارسها النقد البسيكولوجي. والوصفية حلت محل المعياريـــة التـــي كانت سمة مميزة للنقد الأدبي حتى عهد قريب.

فهده النتائج المحققة. بموضوعية كانت نتيجة تصورات منهجية خضعـــت لمعطيات علمية تحلل الأشياء انطلاقا من مؤشرات ودوال تشـــكل تلـــك الأشـــياء ذاتها.

المنهج السيميائي يرفض التصورات النقدية التقليدية التـــي تـــهتم بســيرة المؤلف، ويعتبر الكتاب «كائنات ثقافية أحرزت رتبة الذاتية الإنسانية مـــن خـــلال اللغة»[3]، وبالتالي فإن «إنتاج النصوص الأدبية هو نتيجة لقبولهم قيود و معـــايير نوعية...تتحدث من خلالهم أصوات أخرى»[4]. إن هذا التراجع عن دور المؤلـــف في قراءة، أو دراسة، أو تحليل الأدب يعود في الأصل إلى الدراسات البنيوية التي دعت إلى الاهتمام بالنص بوصفه بنية مكتفية بذاتـــها، وإعطـــاء الأهميـــة للـــدال باعتباره الشكل الذي افرزه النشاط الإبداعي.

غير أن التصور السيميائي يتجاوز هذا التحديد، ويفـــك الحصـــار الـــذي ضربته البنيوية، والنقد الجديد على النص الأدبي/الإبداعي. ومن هذه النقطة بالذات ينفصل المنهج السيميائي عن كافة المناهج المؤسسة له، والمناهج التي صاحبتـــه؛ البنيوية الفرنسية وما بعد البنيوية أي الأنثروبولوجية البنيوية، وحفريات "ميشـــال فوكو"، والفرويدية الجديدة لـــ: "جاك لاكان"، وعلم الكتابة عند "دريدا"، والنقد الذي يتوجه إلى المؤلف، والنقد الذي يركز على القارئ (استجابة القارئ)...الخ.

إن الفرق الجوهري بين هذه المناهج جميعها والمنهج السيميائي يكمن في مفهوم العمل الإبداعي أو النص لدى كل منها. ولتبيان هذا الفرق سأركز على مفهوم **العمل** في النقد الجديد ومفهوم النص في السيمياء[5].

يعتمد النقد الجديد على فكرة **العمل الأدبي** بوصفه موضوعا كاملا مكتفيا بذاته، يتكون من كلمات مبسوطة على صفحة قابلة للتفسير. كما أنه شكل مغلق، والانغلاق ميزته الأساسية، ويتناول باعتباره جانبا من قصد المؤلف، ومتحرر من الضرورة التاريخية.

أما النص في التصور السيميائي فإنه مفتوح و غير تام، وغير مكتف بذاته، وينظر إليه من زاوية أنه قطعة كتابية من إنتاج شخص أو أشخاص عند نقطة معينة من التاريخ الإنساني وفي صورة معينة من الخطاب، ويستمد معانيه من الإيماءات التأويلية لأفراد القراء الذين يستعملون الشفرات النحوية والدلالية والثقافية المتاحة لهم.

النص يردد دوما صدى نصوص أخرى، ويتناول كاختيار حل محل اختيارات أخرى كانت ممكنة، النص دائما نتيجة قرار اعتباطي للتوقف عن الكتابة عند نقطة معينة . وما على الدارس-السيميائي بطبيعة الحال- إلا أن "يتأمل في قرار التوقف وما بعده، أي فيما أقصاه النص وما ضمنه أيضا". النص كما يقول إغلتون (Eagleton): «ليس هو قضية داخلية: يكمن أيضا في علاقة النص بأنظمة المعاني الأكثر اتساعا، بنصوص أخرى، شفرات، ومعايير الأدب والمجتمع».[6] ويرتبط معنى النص أيضا بـ **أفق توقعات القارئ.**[7]

أما من حيث مجالات الدراسة والتحليل فإن مجال العمل يتمثل في الدليل، ومجال النص يتمثل في الدال الذي يتمتع بقدرة رمزية تتجاوز الدلالة المقصودة. أي أن النص الإبداعي يتجاوز حدود العرف والمألوف، لأنه يخرج على الاصطلاح اللغوي، و«يحول اللغة إلى نظام اختلاف في إشاري».[8]

يتضح من هذا أن الأدب هو تجاوز اللغة المعيارية/المعجمية، ومـــن هـــذا التعالي ينشئ أنظمة لغوية جديدة في أشكال مختلفة، تحيـــل هـــذه الأنظمـــة إلـــى مدلولات جديدة، وهذا ما نسميه النتاج الإبداعي، أي ربط علاقات بين الدوال فـــي شكل لم يسبق النص ولم يأت بعده – إنما هو شكل النص. وهناك تكمـــن أهميـــة القراءة/القارئ في تفكيك هذه الأنظمة الخاصة التي لا تصور الخارج ولا تحاكيـــه ولا تعبر عنه، ولكنها تشكله تشكيلا يتجاوز هنا الواقع نفسه. والقارئ هـــو الـــذي يكتشف هذا التشكيل بهدف تأويله، وإعطائه دلالة، مما يعني أن الدلالة فعل قرائي، لا قيمة للنص إلا بوجوده كتأثير إبداعي.(9)

إن المنهج السيميائي الذي يتبنى هذا المفهوم للنص هو نتيجة لتأمل عميـــق في الشكل النصي المتفجر الذي يفجره القارئ بطبيعة الحال بقراءة دواله كعلامات وإشارات وشفرات تحيل على دلالات متعددة ومختلفة يولدها هنا القارئ، أو كمـــا يقول بارت «النص يقترح، والإنسان يدبر». إن النص بهذا المفهوم يتحـــول إلـــى حقل منهجي تتناوله اللغة. مما يجعلنا نقول –تأييدا لفكرة: أن المنـــــهج الصحيـــح يجب أن يتمخض عن موضوعه، وفي الوقت نفسه يكـــون أداة لاستكشـــاف ذات الموضوع– إن المنهج السيميائي في قراءة النص الأدبي ينبثق من النـــص نفســـه ويتموقع فيه، بوصفه شكلا من أشكال التواصل، يربط علاقة تفاعل بيـــن النـــص والقارئ، لأن القارئ ينشط على مستوى استنطاق الدال/النص، مما يجعله يتفـــاعل مؤثرا في النص أو متأثرا به، فإن القارئ أيضا يستجيب للأثر الذي يحدثه النـــص فيه. وهذا ما يجعلنا نقول: إن الإجراء المنهجي هو عبارة عن تفاعل معرفي مـــع النص المقروء، وتتحدد(10)، قيمة هذا النص على مستوى الأثـــر الـــذي تحدثـــه إشاراته في ذات القارئ؛ ونتيجة هذا التفاعل هي تحريـــر النـــص مـــن القيـــود المفروضة عليه.

فالقراءة السيميائية[11]، إذن، تحرر الدوال من قيد المعجم، وتحول العلاقة بين القارئ و النص إلى فعالية إبداعية تعتمد أساسا على كفاءة هذا القارئ (La Compétence du Lecteur) في إنتاج نص قرائي يساوى أو يفوق النص المقروء. شريطة أن تنطلق هذه القراءة -أو البحث-من فكرة أن النص يدخل ضمن سيميائي يتضمن هذا النص؛ ويسعى المنهج إلى توضيح هذه العلاقة، لأنه من دون ذلك لا يمكن أن يتم التعامل مع ذات النص، باعتباره ينفتح ويتقاطع مع عدة خطابات/نصوص وهو أولا وقبل كل شيء قراءة الكتابة[12](Une lecture de l'écriture) كما يقول جون ميشال آدام (J. M. Adam). الكتابة هنا بالمفهوم الذي حدده بارت أي الكتابة التي توضح عملية التشابك النسيجي للنص، بوصفه نسيجا من الكلمات المتشابكة والمنظمة بطريقة تفرض معنى ما.

إنها قراءة إنتاجية، تحاول تقريب القراءة من الكتابة. ويكاد بارت[13] أن يحول القارئ إلى كاتب ثان؛ لأن القراءة السيميولوجية تعتبر أن النص يحمل أسرارا كثيرة والدال عليها يستفز القارئ، ويدعوه إلى البحث عنها وفك رموزها انطلاقا من فهم العلاقة الجدلية الموجودة بين الدال والمدلول، كما حددها علماء اللسان، أي علاقة الحضور بالغياب (الدال حضور والمدلول غياب). حول رولان بارت هذه العلاقة إلى تبادل المتعة واللذة بين النص والقارئ.

وتبدأ عملية البحث عن هذا المعنى الغائب، أو العميق من «دراسة الرموز المنتظمة في عملية التواصل المقصود... كما ينطلق من مؤشرات عديدة لا واعية وغير مقصودة أصلا يمكن أن تومئ بدلالات عميقة يتجلى فيها المعنى العميق للنص خاصة أن العمل الأدبي ينحرف باللغة الاصطلاحية التواصلية إلى تلاوين من التعبير ومضامين لا تدرك إلا بمشاركة عميقة من قبل المتلقي حيث تتقاطع التجربة الذاتية الفريدة لهذا المتلقي وتجربة المبدع نفسه».[14]

إن المنهج السيميائي يعطي دورا رئيسا للقارئ/الناقد، فالقارئ السيميائي قارئ نوعي ومتميز، له القدرة على تفسير الرموز التي يتلقاها في ضوء الرموز التي اكتسبها؛ أي أنه يفك الرموز التي يتلقاها بواسطة الرموز التي يملكها في ذهنه. وليس شرطا أن يكون تحليله لها مطابقا لرموز الكاتب، «فنحن نتعامل مع الوجود انطلاقا من تجربتنا نحن و طباعنا و حساسيتنا والتضمينات التي تطبع رموزنا المختزنة».(15)

وهناك من ذهب(16) إلى أبعد من هذا التصور المنهجي للسيمياء، وجعلها نشاطا عضويا كسائر النشاطات التي يقوم بها الإنسان والمكونة له، سموها الوظيفة الرمزية، مما يوحي إلى الأهمية التي يعطيها الفكر السيميائي للرمز في حياة الإنسان الذي يوظفه «لوعي صورة ذاته و صورة الوجود، والعمل على تصنيف معارف وتنظيمها وتطويرها بواسطة الرموز».(17) وتؤكد مرة أخرى هذه الوظيفة للرمز أهمية التصور السيميائي للأدب كتصور منهجي إجرائي شامل، يحرك جميع أطراف العملية التواصلية، ويلعب القارئ دور المنشط في تحريك وتفعيل أقطاب هذه العملية -المرسل- الرسالة - المرجع - الشفرة - القناة - المرسل إليه-.

إن هذا المنهج في فهم العملية الإبداعية، وفي فهم الرمز/العلامة -بوصفه أداة هذه العملية- يتجاوز المقاربات النقدية التي كانت تهتم إما بدراسة المستوى البنيوي للنص، بحثا عن العناصر المشكلة له، انطلاقا، من فكرة أن لكل عنصر من هذه العناصر علاماته النصية. وإما تهتم بدراسة العلاقة بين الكاتب وكتابه و/أو نصه، لمعرفة المؤثرات الذاتية والاجتماعية والأيديولوجية، معرفة مقصديته لأن هذا يسهم في إظهار المعنى العميق للنص. وهذا ما دعاه "أمبرتو ايكو" استراتيجية الكاتب.

و إما تهتم بدراسة الأثر الذي يحدثه النص في القارئ، أثناء تفاعلهما، والذي يسعى إلى إعادة تأليفه من أجل فهمه وإظهار معناه.

لقد أعاد الفكر السيميائي عموما النظر في هذه المقاربات، ودعا إلى البحث عن المعنى العميق المتضمن في النص انطلاقا من البنية السطحية/الدالة، أي البحث عن التأويل الأكثر ملاءمة وعمقا لنتاج رمزي.[18] شريطة أن يكون ذلك نتيجة لتفكيك البنية الدالة، بوصفها الدليل المادي على هذا التأويل أو ذاك.

إن المنهج السيميائي، بهذا المفهوم، يركز على داخل النص و يرفض العلاقة الموجودة بين النص ومحيطه الخارجي لأنها «لا ترقى إلى تأسيس معنى عميق للنص»، كما يقول السيميائيون. ومن ثم يؤكد على شبكة العلاقات الموجودة بين عناصر الدال، أي العلامات اللغوية.

يتفق هنا التصور المنهجي مع الفكر البنيوي، ويوظف معظم أدواته، التي تعود في الأصل إلى اللسانيات. غير أن السيمياء تتجاوز كلا من البنيوية واللسانيات (حبيسة الجملة)، لأنها «تهتم بموضوع بناء الخطابات والنصوص و تنظيمها وإنتاجها».[19] وهذا بالذات ما جعلها تتصف بالنصية، لأنها تدرس خصائص اللغة في جميع تمظهراتها التركيبية، وعلاقة ذلك بالمعجم. وأدركت السيميائية بأن «المفردات تتكون من مجموعة من العناصر يضبطها المعجم، ولكنها، عندما تتعلق مع مفردات أخرى داخل تركيب محدد فإنها تستقبل سمات جديدة لا يتوفر عليها معجم تلك المفردات منفصلة عن بعضها البعض»[20].

تتضح هذه السمات بشكل بارز في النص الشعري المعاصر، الذي يعتمد في تشكيل صوره التعبيرية على ابتكار علاقات جديدة غير معجمية بين مفردات اللغة، أثناء تشكيل الصورة الشعرية، أو تركيب الفضاء الشعري عموما.

لقد قمت بقراءات مع الطلبة لنصوص شعرية معاصرة، وكانت النتائج مدهشة في فهم دلالات هذا الشعر الذي يوصف-عادة - بالغموض. وقد أقبل

الطلبة على دراسة النص الأدبي في ضوء هذا المنهج دون أن أقـول لـهم بأنـه المنهج السيميائي، تجنبا لردود الأفعال المبنية على نيات مسبقة ... إنمـا أقمـت موازنة بين طريقة تشكيل الصورة في الشعر القديم الذي يعتمد في العـادة علـى العلاقات المعجمية، ويشترط أن تكون هناك علاقة مشابهة بين طرفـي التشـبيه/ الصورة. أما في الصورة المعاصرة فإن هذه العلاقة غير معجمية، بل هـي مـن ابتكار الشاعر بهدف التعبير عن المعنى الذي يمكن أن يؤوله القارئ.

وهذه آلية من الآليات السيميائية العديدة التي تسهم في تفكيـك النـص ، و بالتالي تأويله، شريطة أن يتمتع المؤول بقدرة معرفية تعادل أو تفوق قدرة المبدع.

تدخل هذه المفاهيم و الآليات ضمن مصطلح الأدبية، أي أنها عوامل مـن العوامل العديدة التي تساهم في أدبية النص، التي يعرفـها شـولز[21] (Shooles) بأنها طريقة في القراءة. ويحمل القارئ مسؤولية إثبات الأدبية مـن عدمـها فـي النص الأدبي بناء على الكفاءة الأدبيـة لديـه (La compétence du lecteur). وتتمثل هذه الكفاءة في سيادة الأعراف النوعية على حد قول جوناتـان كللـر (J. culler). فهذه الأعراف هي التي تحول الخطاب العادي إلى خطاب أدبي وهنا مـا يسمى بشفرات الأدب. ولا يمكن أن يكون القارئ كفئـا مـن دون معرفـة هـذه الشفرات. يقول شولز[22] إن القارئ ليس حرا في صنع المعنى، بـل حـرا فـي العثور عليه متتبعا الطرق الدلالية والنحوية و التداولية المختلفة التي تخرجه مـن نطاق كلمات النص. أي أن المعنى الذي يعطيه القارئ للنص يجـب أن يخضـع للنص نفسه، لتركيبته، المعنى الذي يحيل عليه الدال عن طريق الشفرة التأويليـة، مؤكدا على أن كل شكل هو مجرد نظام تشفير (Codifidation) لبعض الإجراءات الاتصالية التي ثبت تأثيرها على مر الزمن.

يتضح من هذا المفهوم للأدبية بان شكل النص يتقاطع دائما مـع أشـكال سابقة عليه؛ أي التداخل النصي (التناص) (L'intertexualité) الذي يعتبر مـن

أهم المصطلحات المفاهيم السيميائية التي تلعب دورا أساسيا في عملية توليد المعنى، بوصفه علامة سيميائية كما يلعب دورا رئيسا في بنية النص الشكلية بوصف (النص المتداخل) لغة.

ويدعو شولز[23] أيضا إلى بحث طريقة؛ تحول السمات الاعتيادية لفعل التواصل إلى خصائص شكلية للأدب. ويصف هذه العملية بفعالية قائمة على أساس المتعة المتأصلة في العمليات السيميائية الناتجة عن قدرتها على توليد المعنى و إيصاله. وللتمكن من ذلك يرى بأنه ليس من اليسير تحقيق ذلك، بل تتطلب هذه الفعالية تدريبا أعلى من الكفاءة اللغوية. وهنا تأتي أهمية سيمياء الأدب، لأنها آليات ذهنية قادرة على تقوية هذا التدريب وبالتالي تساعد القارئ في التركيز على «المهارات الاتصالية المطلوبة لإكمالها»[24].

فمثلا عندما ندرس نصا شعريا، يجب أن نكون ملمين بموروثه النوعي، أي جامع النص (L'architexte)، ولا بد أن يتمتع القارئ بمهارة فرز عناصر النص. يرى شولز بأن هذين الجانبين أساسيان في أي دراسة سيميائية للشعر، بحجة «أن القصيدة نص يرتبط بنصوص أخرى، ويتطلب مشاركة فعالة من قارئ ماهر قادر على تأويله»[25] «فالنصوص تنبثق من نصوص متداخلة(Intertextes) أخرى، أو من قوالب (Matrices) يقدمها الموروث المتواتر»[26].

إن هذه المفاهيم: **جامع النص -عناصر النص- المشاركة الفعالة للنص - القارئ الماهر- التأويل -نصوص متداخلة- قوالب** . . دعوة إلى القراءة السيميائية، أي قراءة مجازية بخلاف قراءة المحاكاة.

وفي الأخر أقول: إن السيمياء بمفهومها الواسع تصور منهجي أولا وقبل كل شيء، لأنها تحدد قبلا طريقة التعامل مع الموضوع. والمقاربة السيميائية في قراءة النص الأدبي تعتمد جانبين أساسين: الجانب الأول يتعلق بالتصور الذهني لفهم الظاهرة الأدبية بوصفها فعلا ثقافيا. أما الجانب الثاني فهو إجرائي للتصور

الأول، ويتمثل في الأدوات الإجرائية -العملية - والمصطلحات المفهومية التي يتعامل القارئ بواسطتها مع النص -قديمه وحديثه-.

ولابد أن أشير هنا أيضا إلى أن دور نظرية **جاكبسون** في التواصل في تأسيس التفكير السيميائي -أي العناصر الستة التي تحدد فعل التواصل، والأدب تواصل بشكل من الأشكال- فهذه العناصر يحولها القارئ إلى إجراء تحليلي بدراسة العلامات التي تحدد وظيفة اللغة، وبالتالي نوع الخطاب/أو النص كتوطئة دراسة شفرات النص..

وقد قمت بتجارب في تطبيق هذا الإجراء الأسلوبي على نصوص شعرية، فلاحظت تجاوبا كبيرا عند الطلبة، الذين أبدوا رغبة في فهم القصيدة الشعرية انطلاقا من هذا التصور. وكان التركيز على الوظيفة الشعرية التي تعدّ النقطة التي ينفتح منها النص، فكلما هيمنت على النص كان أكثر انفتاحا.

وآية هذا فإن السيمياء حقل دراسي يشتغل فيه البحث، وفي الوقت نفسه هي أداة للتحليل النصي. وهذا ما يجعلها تصورا ذهنيا هاما في فهم الظاهرة الأدبية. وتفسيرها.

الـــهــوامـــش

---

[1]- انظر: الغذامي. تشريح النص، ص72.

[2]- المرجع نفسه، ص74.

[3]- شولز، روبرت. السيمياء والتأويل. ص38.

[4]- المرجع نفسه، ص38.

[5] انظر: روبرت، شولز. السيمياء والتأويل ص39-40.

Eagleton, terry. Gritique et théorie littéraire. P : 103. [6]

Ibid. [7]

[8]- الغذامي، عبد الله، تشريح النص، ص75.

[9]- الغذامي، عبد الله، تشريح النص، ص75.

[10]- الغذامي، عبد الله، تشريح النص، ص13.

[11]- الغذامي، عبد الله، الخطيئة والتفكير. ص:49.

Cité dans : Critique et théorie littéraire. Op. cit: P :73 -[12]

[13]- انصبت اهتمامات "بارت" الأخيرة على مفهوم الكتابة بخلاف الاستكتاب. وانصبت أيضا على إنتاجية القارئ الذي حوله إلى عاشق للنص يتلذذ بقراءته.

[14]- ذكره أنطوان طمعه. السيميولجيا والأدب. عالم الفكر. ع3. 1996. والفكرة لجورج مونان(Georges Mounin)

[15]- المرجع نفسه، ص: 208.

[16]- مثلا. جون، مولينو(Jean Molino) ذكره المرجع نفسه.

[17]- المرجع السابق. ص: 208.

[18]- المرجع السابق. ص: 210.

[19]- السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير عالم الفكر، ع3. 1996.

[20]- المرجع نفسه.

[21]- شولز، روبرت. السيمياء والتأويل، ص: 47.

[22]- المرجع نفسه ص62.

[23]- المرجع نفسه ص69.

[24]- المرجع نفسه ص69.

[25]- المرجع نفسه ص88.

[26]- المرجع نفسه ص79.